النحو العربي وأثره في النحو العبري

للدكتور محمد حسن ابراهيم
(الجامعة الأردنية)

توطئـــة

ليعذرني القارىء ان لم استطع مقاومة اغراء يلح علي في كتابة هذه التوطئة، التي قد لا يرى فيها سلطة وثيقة بمادة البحث . ولعل الاغراء والالحاح هذين كان تجربة شخصية مريرة أوحت الي بالتفكير في كتابة هذا البحث ، بعد ان استطعت ان تقع عليه يداي ، ليبوء في النهاية على هذه الصورة التي ارجو ان تحفز غيري من الزملاء والمختصين الى مزيد من البحث فيه ، والى استنصائه بشكل افضل .

فقد اتيح لي قبل سنتين وقبل ان اتفرغ للبحث العلمي في احد اوروبي ، وما ان وصلته حتى سعيت الى الحصول على حصولي عليه في الاردن . وكان ذلك الكتاب احد المؤلفات التي شرعت دار موتون للنشر في لاهاي في اصدارها من الزمان او يزيد ، وخصصت كل مجلد لجانب من جوانب اللسان الحديثه . اما المجلد الذي حرصت على قراءته في المجلد الثالث عشر من هذه السلسلة، الذي خصص للتاريخ

الدراسات والعلوم اللسانية عند مختلف الشعوب والامم (١)،وكان مصدر اهتمامي بهذا المجلد هو رغبتي في الاطلاع على ما كتب فيه عن تاريخ الدراسات اللغوية واللسانية عند العرب . وما ان اطلعت على هذا الجزء من الكتاب وقارنته بما جاء فيه عن أمم اخرى،حتى ارتسم على الذهول ؛ فقد تبيّن لي ان المقالة الخاصة بالدرس اللساني عند العرب،قد أُسْنِدَت الى يهودي اسرائيلي،لم يجد ما ينوله من ذلك التراث العربي العريق،الممتدّ عبر قرون عديدة، سوى احدى عشرة صفحة ، اضاف اليها ثماني صفحات من المراجع ؛ فكانت المقالة في مجملها تسع عشرة صفحة،من بين الف وخمسمائة وثماني عشرة صفحة،هي مجموع صفحات الكتاب . (٢) هذا في حين استغرق الحديث عن المدرسة البنيوية الامريكية ، التي لا يتجاوز عمرها نصف قرن،ما مجموعه مائتان واربع وسبعون صفحة من الكتاب ذاته ، كما استغرق الحديث عن الدرس اللغوي عند اليهود سبعا واربعين صفحة . وباختصار ، فقد كانت المقالة الخاصة بعلوم اللسان عند العرب،اقصر المقالات العشرين التي ضمّها جزءا الكتاب الضخم ، بل اكاد اقول انها كانت ارداها .

وقد ازدادت دهشتي حين تحولت لقراءة الجزء الخاص بتاريخ النحو العبري،الذي كتبه يهودي بالطبع (٣)،فوجدت ان تلك المقالة لا تمت بصلة الى موضوع الكتاب . لقد كانت هذه المقالة سردا مفصلا لتاريخ اللغة العبرية،وليس لتاريخ الدراسات اللغوية عند اليهود ؛ ولا ادري كيف عُمِّيَ محرر الكتاب،او تعامى،عن هذه الحقيقة،وادرج هذه المقالة في كتابه . عندها اردت ان اجد الجواب عن هذا التساؤل الذي لم اكن اعرف عنه الكثير ، فاخذت انقش عن بعض المصادر والمراجع التي تعينني في معرفة

شيء عن تاريخ النحو العبري . وما ان فرغت من قراءة كل ما استطعت العثور عليه، حتى تكوّنت لدي قناعة بأن المقالة المذكورة عن الدرس اللغوي عند اليهود، انما كتبت بالشكل الذي جاءت عليه، كيلا يعرف القارىء ان النحو العبري نشأ ونما واكتمل في كنف النحو العربي وبفضله . ومن ذا الذي يريد ان يعترف، في عام ١٩٧٥، بأنه كان للعرب فضل على اليهود في اي وقت ، خصوصا اذا كان الكاتب يهوديا ؟ . ولم يذكر الكاتب العرب او المسلمين الا في عبارات قليلة محدودة على الصفحتين ١٣٠٨ — ١٣٠٩، كقوله بأنه كان للعربية اثر على العبرية في القرون الوسطى، حين دخلت الثانية بعض المفردات من الاولى، ويورد للتدليل على ذلك بعضا من المصطلحات الفلسفية، التي يقول انها ترجمة لمصطلحات عربية، اخذها العرب بدورهم من اللغة السنسكريتية . وفيما عدا ذلك لم يشر الكاتب على الاطلاق بشيء الى نشأة النحو العبري وتطوره، ولا يشير حتى الى اي من المصادر التي تعالج هذا الموضوع بالبحث .

وسأحاول في الصفحات التالية ان اسرد، بشيء من الايجاز الذي لا بد منه، قصة نشوء الدراسات اللسانية العبرية وتطورها ، معتمدا في اغلب الاحيان على مصادر يهودية ؛ ثم اترك القارىء بعد ذلك استخلاص النتيجة التي يراها عن اثر النحو العربي في نشأة النحو العبري وتطوره .

نشأة النحو العبري

لاحظ الدارسون لنشأة النحو عند امم كثيرة، ان هذه النشأة ترتبط عادة بالخوف على تراث لغوي للامة من الضياع او الفساد او

الخلل . وقد يكون هذا التراث اللغوي ادبيا . كما قد يكون دينيا . هكذا كانت النشأة الحقيقية للنحو الاغريقي في الاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد وبعده،حين بُعد العهد بأشعار هوميروس، واصبح من العسير فهمها،لاختلاف لغتها عن لغة العصر الذي كتب فيه النحو اليوناني .(٤) فكانت الغاية من كتابة النحو حفظ الادب اليوناني القديم ، وجعل دراسته ميسورة . وفهمه ممكنا . كذلك كان الخلل عند العرب،الذين ما ان احسوا بالتغير يعتور لغتهم من كل جانب بعد الفتوحات الاسلامية،حتى نهضوا لتدوين لغتهم وكتابة نحوها حفاظا على القرآن الكريم . ونجد مثل ذلك حين نتتبع نشوء النحو عند الهنود وغيرهم من الامم .

وأول ما يلحظه المرء عند دراسته لتاريخ النحو العبري،هو تأخره الطويل في الظهور؛فالمعروف ان الخلل بدأ يتسرب الى اللغة العبرية بعد السبي البابلي وتخريب الهيكل،في القرن السادس قبل الميلاد،مما نشأت عنه حاجة للتأليف في النحو . ومن الطريف في الامر ان هذا هو القرن الذي يعتقد بعض المؤرخين ان النحوي الهندي العظيم « بانيني » قام فيه بكتابة نحو اللغة السنسكريتية ذي الاجزاء الثمانية ؛ والذي ما زال يعتبره علماء اللسانيات مثلا يحتذى في كثير من ابوابه ومناهجه .

لقد مضى على اليهود قرابة ستة عشر قرنا منذ حادثة السبي البابلي ، التي كان يصح ان تكون سببا في نشوء نحو عبري ، قبل ان يصبح لهم نحو بالمعنى المقصود بالنحو . غير انه لا بد،قبل التعرض لذلك بالتفصيل، من الاشارة الى بعض الدراسات اللغوية،وليس الدينية ، التي سبقت عصر تدوين النحو العبري .

كانت الدراسة اللغوية اليهودية قبل نشوء النحو العبري تنصبّ على التوراة ؛ وقد نشأ بتعاقب الاجيال تراث ضخم من هذه الدراسات، التي تعرف باسم « المازوره »؛ غير ان هذه الاعمال لا يمكن أن تحسب في عداد الدراسات النحوية، لانها تقتصر على البحث في الحركات والضوابط التي تعين على قراءة التوراة قراءة صحيحة، وعلى احصاء بعض الصيغ والحروف في التوراة ، (٥) دون ان يؤدي بهم ذلك الى البحث في اللغة واستنباط قواعدها واحكامها . في هذا الصدد يقول هيرشفيلد ان « هذه المحاولات جميعها كانت لخدمة الاغراض الدينية » ومن المشكوك فيه ان اليهود كانوا سينطلقون الى وضع نحو عبري لولا الحاح المؤثرات الخارجية عليهم للقيام بذلك . » (٦) فما هي طبيعة المؤثرات الخارجية التي جعلت اليهود يكتبون نحواً لهم بعد كل هذه القرون من الغفلة وفتور الهمة ؟

هناك اجماع تام بين المؤرخين للنحو العبري الذين درسوا اليهود وكلهم من اليهود ، على ان النحو العربي كان هو المثل الذي احتذاه العبرانية على تاليف كتبهم ، كما كان المثل الذي احتذوه عند التأليف في دقائقه وتفصيلاته . هذا في حين نجد ان كتب تاريخ الشعوب والطبقات العربية ، قديمها وحديثها ، تسكت عن اي ذكر للاثر العبري في النحو العبري ، مع أن هذا النحو يصح ان يُعدّ من حيث منهجه واسلوبه جزءا من التراث النحوي للعرب ، لان كثيرا منه كتب بالعربية في بلاد عربية وفي ظل الحكم العربي ؛ كما ان التاليف فيه ، كما سنبيّن فيما بعد ، كان يحاكي المؤلفات العربية ويقتفي خطاها . ولم أعثر فيما اطلعت بالعربية على اشارة للاثر العربي في النحو العبري، الا في كتاب واحد (٧) استقى مؤلفه جل معلوماته عن هيرشفلد . هذا علاوة على اشارات مبتسرة كثيرة، فيما كتبه بعض العرب من مقدمات لمؤلفات وكتب مطبوعة في اللغة العبرية . (٨) .

يعتقد هيرشفلد ان بداية الاثر العربي كانت في بغداد، حين اصبحت في القرن الميلادي الثامن وما تلاه من قرون مركزا لمختلف العلوم والمعارف ، ومنها النحو ، واجتمع فيها، في جملة من اجتمع، نفر من النحاة وعلماء اللغة، اخذوا يلقنون علومهم للدارسين، الذين لابد وان كان بينهم بعض اليهود والعرب . ويضيف هيرشفلد بان هناك دلائل كثيرة على الاثر العربي في المؤلفات النحوية العبرية الاولى ، حيث اسماء الحركات وحروف العلة في هذه المؤلفات هي نفسها في المؤلفات العربية، بل ان كتب اليهود النحوية الاولى كُتبت بالعربية ، واستخدمت مصطلحات النحو العربي، واتبعت النسق الذي كان يتبعه النحاة العرب في كتبهم . (٩) .

اما عن النحو العبري في الاندلس ، فيقول وليام تشومسكي بان العصر الوسيط في اسبانيا ، اي فترة الحكم العربي للاندلس ، كان هو العصر الذهبي في تاريخ اليهود . فقد كان ذلك العصر غنيا بالفلاسفة والشعراء والعلماء، ويتطلع اليهود الى ذلك العهد دائما ، يستوحون فكره ويستمدون منه العزم . ولعل اعظم ما قدمه ذلك العصر كان في ميدان النحو العبري، الذي اصبح اكثر العلوم شيوعا، وبلغت المؤلفات فيه من الغزارة حدًّا لم يعرفه اي عصر آخر في تاريخ اليهود ، سواء من حيث الكم او من حيث النوع والاصالة . وعليه ، فمن اللائق ان يطلق على ذلك العصر « العصر الذهبي للنحو العبري . » (١٠) وتذهب دائرة المعارف اليهودية الى ابعد من ذلك، حين تؤكد ان النحو الذي وضعه اليهود ابان الحكم العربي، ومحاكاتهم للنحو العربي ومؤلفاته، كان ولا يزال النحو الوحيد لهم، الذي نشأ من دراستهم للغة العبرية واستقصائهم لها . (١١) .

الاثر العربي في النحو العبري

يعتبر سعديا ، وهو سعيد بن يوسف الفيومي ، الذي عاش في النصف الاول من القرن العاشر الميلادي ، ابا النحو العبري ، اذ لم يسبق الينا اي اثر في النحو العبري لمؤلف قبله . ومن المتفق عليه ان سعديا قد كتب ما كتب ، وهو كثير لم يصلنا منه سوى القليل ، بتأثير من الثقافة العربية الاسلامية التي عاش في كنفها وتمثلها بعد ان تمثلها لبعض اعلامها . (١٢) بل ان احد المصادر يذهب الى حد القول بأن سعديا ، الذي نشأ وتعلم في العراق قبل رحيله الى مصر ، كان يتنازعه مذهبا البصرة والكوفة ، وانه انتهى في النهاية الى تغليب مذهب البصريين في الاخذ بالقياس في الامور الدينية ، في حين اتجه الى الاخذ بالمذهب الكوفي في المسائل النحوية . (١٣) اما الاثار التي تعرفها لسعديا فهي تتلوس للغة العبرية القديمة ومجموعة مقالات في النحو اطلق عليها اسم (كتب اللغة) وكانت اول محاولة معروفة لكتابة نحو لعبرية التوراة ، ويبدو كتب هذه الآثار جميعها ، مثلها مثل كل المؤلفات اليهودية اللغوية التي تعود الى القرن العاشر الميلادي ، باللغة العربية بل ان سعديا نفسه من كتبه اسلوب العرض العربي ويعرض مادته باسلوب النحاة العرب نفسها . (١٤) وباستثناء كتب سعديا فان مؤلفات هذه المدرسة التي في الشطر الغربي من الدولة الاسلامية في شمال افريقيا والاندلس ، وهذه عاصروا سعديا وكتبوا مثل كتبه يهودا بن قريش الذي عاش في شمال افريقيا في الربع الثاني من القرن العاشر ، وهو صاحب رسالة حاول ان يقارن فيها بين الالفاظ العبرية والارامية في التوراة ؛ ثم دونش بن تميم الذي عاش في الفترة نفسها في القيروان ، وألف كتابا بالعربية عن المقارنة بين المفردات في العربية والعبرية ؛ وداود بن ابراهيم الفاسي الفاسي ، صاحب اول معجم شامل بالعربية لالفاظ اللغة العبرية ، وقد سبق هؤلاء

اخرون وضعوا كلهم بالعربية ، كما اسلفنا ، مؤلفات معجمية وتطرقوا قليلا الى موضوعات نحوية متفرقة .

على ان عصر النحو العبري الحق لم يبدأ الا في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي في الاندلس، التي يعود اليها غالبية المؤلفات النحوية العبرية لذلك العهد، كما ان هذه المؤلفات جميعها ، في اسبانيا وفي غيرها من البلدان ، كتبت بالعربية . كما اكتملت في هذه الفترة ، التي تمتد حتى حوالي منتصف القرن الثاني عشر ، الدراسات النحوية التي شملت عبرية التوراة بجوانبها المختلفة كافة . ومن اول الاسماء التي لمعت في هذا العصر اسم يهودا بن حيوج الذي عاش في مدينة فاس في اواخر القرن العاشر الميلادي واوائل الحادي عشر .

كان النحو العبري قبل ابن حيوج يتصف بالاغراق في التكهن، مع الاقلال من النظر في اللغة ذاتها لاستنباط قوانينها وقواعدها . ويعد ابن حيوج اول نحاة العبرية الذين اقاموا نحوهم على اسس علمية، ما حدا بابراهام بن عزرا ، من نحاة القرن الثاني عشر ، ان يلقب ابن حيوج بامام النحاة . (١٥) ولا شك ان اهم اعمال بن حيوج هو كشفه عن الاصل الثلاثي للالفاظ العبرية في كتابين هما « كتاب الافعال ذوات اللين » و « كتاب الافعال ذوات المثلين » تحدث في الاول منهما عن الافعال التي يكون احد حروفها الاصلية حرف علة ، وهي الفعل الناقص والاجوف والمثال ؛ وبحث في كتابه الثاني في الافعال المضعفة ، ورد هذه وتلك ، كما رد غيرها من الافعال والالفاظ العبرية ، الى اصل ثلاثي . ومرة اخرى نجد المصادر تجمع ان ذلك ما كان ليتم لولا مؤلفات النحاة العرب (١٦) ، الذين عرفوا الاصل الثلاثي للالفاظ العربية، واصبح من المسلم به عندهم، منذ الخليل في القرن الثامن الميلادي ، اي قبل مؤلفات ابن حيوج بنحو ثلاثة

قرون . والغريب في الامر انه بالرغم من هذا الاكتشاف المتأخر للاصل الثلاثي ، فان ابن حيوج واجه موجة عنيفة من الاعتراض والاستهجان على نظرياته، كان ابرز ابطالها دوناش بن الابرد . وبقيت نظرية الاصل الثلاثي للالفاظ العبرية مجهولة لدى اليهود خارج الاندلس، الى ان جاء الرقسطي الذي ترجمت فيه كتب الاندلسيين الى اللغة العبرية بعد ذلك بقدر مرضي من الزمان .ورغم المعارضين فقد شاعت اعمال ابن حيوج بين نحاة اليهود ، واصبحت موضع درس عميق ونظر متفحص، وكتب بعضهم مطولات في آراء ابن حيوج ، ودافع هو عن نفسه في اكثر من كتاب، بل ان ابرز نتائج هذه المعارك والمساجلات النحوية كان تمهيد الطريق امام نشأة اول نحو عبري شامل، على يد النحوي اليهودي الشهير ابو الوليد مروان بن جناح، المولود في قرطبة في الثمانينيات من القرن العاشر الميلادي، كان يقارب من معاصري ابن حيوج . وقد كان من اول مؤلفاته « كتاب المستدرك »، لأنه ليستدرك على ابن حيوج بعض ما فاته في مؤلفيه الآنفي الذكر ، ولينقد بعضا من نظريات ابن حيوج وآرائه . وقد اثار « كتاب المستدرك » لابن جناح، موجة من التأليف لعدد من النحاة بين معترض ومؤيد ، وقد كتبت هذه المؤلفات جميعها بالعربية ، حتى ان واحدا من هذه الكتب استشهد بابيات كثيرة من الشعر العربي . (١٧) واهم قضية دارت حولها هذه المساجلات الكثيرة، كانت الاختلاف في اصل الالفاظ : اثلاثي هو ام ثنائي؟ كما انها كانت عاملا في اغناء النحو العبري، بتدقيق النظر في بعض موضوعاته ، واستكمال ابوابه ، والتعمق في دراسته .

ولا مراء في ان اعظم مؤلفات ابن جناح كان مؤلفه الموسوم « كتاب التنقيح » الذي يتألف من قسمين :"كتاب اللمع"، ويبحث في نحو العربية القديمة، و"كتاب الاصول" ، وهو معجم للغة التوراة . ويشكل الكتابان معا اول دراسة شاملة متكاملة لعبرية التوراة ، كما انهما يعتبران، دون ادنى

وبين قمة الدراسات اللغوية العبرية في عصرهما ؛ وقد كتب ابن جناح كتابه باللغة المعروفة بـ « العربية العبرية » ، وهي نمط من اللغة العربية كان يكتبه يهود الاندلس العربية بالحروف العبرية .

أما عن الاثر العربي في هذا المؤلف ، فهو اوضح من ان يحتاج الى بيان ؛ ويبدو الاثر واضحا جليا من مقدمة الكتاب حتى نهايته . اذ يفاتح ابن جناح عن النحو في مقدمة كتابه، ويبين ضرورته، واهميته للدين وفهمه ودراسته، بصورة تذكّرنا بمقدمات كتب النحو العربي ؛ كما يعلل ابن جناح تأليفه للكتاب بالعربية على انه نابع من افتقار اللغة العبرية في ذلك العصر الى المصطلحات النحوية اللازمة للتأليف في مثل هذا الموضوع .(١٨) كما يتضح الاثر العربي ايضا في الشرح المستفيض للاصل الثلاثي للافعال العبرية، الذي اقتبسه ابن جناح عن العرب دون اي شك، والذي من اجله وضع كتابه "الاصول" ويبلغ الاثر العربي حدا جعل ابن جناح معه يلجأ الى اللغة العربية يستمد منها الحجة والدليل، للتدليل على صحة آرائه والبرهنة عليها ، لان اللغة العربية، على حد قوله ، هي اقرب اللغات الى العبرية . ولعل خير ما يدلل على الاثر البعيد للنحو العربي في فكر ابن جناح، هو تلك الثروة الكبيرة من مصطلحات النحو العربي التي استخدمها في « كتاب اللمع »، في معرض تأليفه للنحو العبري ، ومن امثلة ذلك : الاعلال ، والتصريف ، والمجاز ، والاشتقاق ، واقسام الكلام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف ، والفاعل ، والمفعول به ، والاسم بنوعيه: المفرد والمركب، والاضافة بضربيها : اللفظية والمعنوية ، والتمييز ، والمصدر ؛ وغير ذلك كثير ازدحمت به صفحات كتاب اللمع . وبالنظر الى ذلك كله فليس من الشطط ولا من المغالاة القول بان كتاب اللمع هو كتاب نحو عربي في لغته ومنهجيته ومصطلحاته وقواعده ، بل حتى في ابوابه وتبويبه ، سوى ان الامثلة التي اوردها المؤلف على ذلك كله كانت من اللغة العبرية، لا من اللغة العربية .

وما قيل عن ابن جناح يقال في غيره من معاصريه من النحاة اليهود. ويكفي ان نسرد بعض المؤلفات في هذا العصر لنتصور المدى الذي تشبع به النحو العبري بالنحو العربي . فقد ألف اسحق بن يشوشان في مدينة طليطلة « كتاب التصريف »، ووضع موسى بن شموئيل حيتاليلا القرطبي « كتاب التذكير والتانيث » ، في حين كان « كتاب حروف المعاني » من نصيب يهودا بن بلعم الذي اشتهر في طليطلة، واسبغ من اعلام النحو العبري فيها ، كما عرف بشغفه بالادب العربي، شعره ونثره . (١٦) ومن مؤلفات ابن بلعم ايضا « كتاب الافعال المشتقة من الاسماء » و « كتاب التجنيس . » وفي الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، وضع اهارون بن بارون « كتاب الموازنة بين اللغة العبرانية واللغة العربية » . (١٧) ولعل من اطرف المؤلفات في هذه الفترة المنظومة النحوية التي نظمها سليمان بن جبيرول شعرا بالعبرية ، (٢١) والتي تذكرنا بالفية ابن مالك التي نظم والتي توحي بسه هذه المؤلفات وامثالها ان نحاة العبرانية لم يقلدوا النهج العربي في التاليف النحوي وحسب ، بل وكأني بهم كانوا ملما قرأوا مؤلفا عربية في اللغة والنحو بادروا الى تقليده، وتطبيق افكاره ونظرياته على لغتهم . ولا شك في أن التشابه الكبير بين اللغتين العربية والعبرية كان من العوامل المساعدة لهم في ذلك كثيرا ، والا فكيف نفسر هذا التطابق بين اسماء عدد كبير من كتب النحو العبري، ومؤلفات بعينها في النحو العربي ؟ بل ان هناك من يذهب الى ابعد من ذلك ليؤكد بان بعض علماء المسلمين كانوا « يعينون اليهود على انشاء نحو لغتهم . » (٢٢) فمهما صح هذا الامر ،وليس فيه غرابة على اي حال ، فانه يفسر لنا هذه الظاهرة ، ظاهرة التاثير والتاثر التي تكاد تكون اقرب الى النقل المباشر ، والتي لم يُعرَف مثلها في تاريخ النحو في اي مكان او عصر آخر .

وهنـــاك امـــر آخـــر واخير له دلالتـــه على اهمية الاثـــر العربـــي في الدرس اللغوي العبري، وعمق هـــذا الاثـــر ، وهـــو ان هذه النهضة اللغوية التي حققها يهود الاندلس ابان الحكـــم العربي، لـــم يعرف لها مثيل بين اليهود في اقطـــار اوروبة المجاورة للاندلس ، مثل ايطاليا وفرنســـا والمانيا ، حتى في ذلـــك القسم الواقع تحت حكم الفرنجة من اسبانيا ، حيث كانت تعيش اعداد كبيـــرة من اليهود . بـــل ان هذه الجاليات اليهودية الاوروبية لم تكد تعرف شيئا من التاليف النحوي في اللغة العبرية، ولا تناهى اليها جانب من النظر اللغوي الذي قام في الاندلس، لجهلهم باللغة العربية التي كانت تكتب بها اولا لغـــة التاليف عند النحاة اليهود جميعهم ، الـــى ان فرضت الظروف السياسية والتاريخ لبعض اليهود، من المهتمين بالنحـــو في الاندلس، القيام بترجمة اهم الاعمال الاندلسية في النحو العبري الـــى العبرية في اغلـــب الاحيان ، والى اللاتينية في بعضها الآخر .

تمثلت الظروف التي ادت الى انتشـــار نحاة الاندلس اليهود فـــي اوروبة عقب ما يعـــرف بالفتنة البربرية (١٠٠٩ ـــ ١٠١٢ م) التي قضت علـــى وحدة الاندلس، وادت الـــى قيـــام عصر ملوك الطوائـــف، ذلـــك العصـــر الذي اتسم بالتشتت والتفرق ، وبالتنازع بين الممالك المختلفـــة، واستمر حتى عام ١٤٩٢، بسقوط آخر هذه الممالك، وانتهاء الدولة العربية فـــي الاندلـــس .

وقد اصاب اليهود، وحـــل بهم وبعلمائهم، مـــا اصاب المسلمين وحـــل بهـــم وبعلمائهم ؛ فقـــد « قضـــت الفتنة البربرية على كثيـــر من العلماء بالموت او بالهجرة من الاندلس الى خارجها »، كما « اصبحت حياة العالـــم او الاديب في هذا العصر ، من ناحيتها المعاشية ، قائمة في الاكثر علـــى التجوال المستمر، والاحتماء ببلاطات الامـــراء » . (٢٢) اذن فقد ارتحـــل

بعض نحاة اليهود ليعيشوا بين ابناء جلدتهم في الاقطار الاوروبية التي ارتحلوا اليها ، وارتحل معهم نحوهم بكل سماته العربية ، واخذوا في نشره في الاقطار التي ارتحلوا اليها بالترجمة الى العبرية او اللاتينية حينا ، وبالتأليف حينا، وبالتأليف على غرار نحاة الاندلس بلغات غير العربية حينا آخر . وهكذا يكون هذا العصر من عصور النحو العبري امتدادا للاثر العربي وتوطيدا له، وقد خلا او كاد من اية اضافة جديدة او اصالة . ولعل اهم ما تميزت به هذه الفترة هو ترجمة المصطلحات النحوية العربية التي امتلأت بها كتب ابن حيوج وابن جناح، ووضع مقابلات عبرية لها، لاتزال هي المعتمدة في النحو العبري حتى يومنا هذا . كما ان تقسيم النحو واللغة التي ترجمت الى العبرية في هذه الفترة، ظلت منذ ذلك الحين وحتى الآن هي المثال الذي يُحتَذى في تأليف كتب النحو العبري وتعليمها، وفي وضع المعاجم العبرية، كما انها اختطت لليهود المنهج الذي يسيرون عليه في تناول قضايا النحو واللغة في العبرية . وبعبارة اخرى فان الاثر العربي في النحو العبري ظل ثابتا لم يتزحزح، وان كان يبدو الان أقلَّ وضوحا لطول العهد به ، ولما اعتراه من متغيرات وعوارض نجمت عن الترجمة، وعن اعتماد العبرية اساسا في التأليف ، ولما قد يغيب عن نظر الناظر حين يتأمل في المصطلح النحوي العبري بعد ان لبس ثوبا عبريا في الشكل وان كان كذلك في اصوله الاولى .

ويطول بنا المقام ان نحن تتبعنا حركة الترجمة في هذا المستوى لذلك سنكتفي باستعراض بعض الامثلة نستدل بها على نوع الكتب المترجمة والمؤلفة، وما قد كان لها من اثر على الاجيال اللاحقة من دارسي كتب النحو العبري ودارسيها . مثالنا الاول هو ابراهام بن عزرا، ولد في مدينة طليطلة العربية الاندلسية في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ودرس العلوم العربية والعبرية دراسة متعمقة ، وتلقى العلوم

العشرين الاخيرة من حياته (١١٤٠ — ١١٦٠م) متجولا في فرنسا وايطاليا، وقد استطاع خلال تجواله عددا من كتب النحو بالعبرية ،ولم تكن هذه الكتب في الحقيقة سوى تلخيصات ومختصرات لكتب ابن حيوج وابن جناح وغيرهما من نحاة الاندلس . (٢٤) كذلك قام نحوي آخر هو سليمان بن يرحون بتاليف كتاب في النحو في ايطاليا،لم يكن سوى ترجمة امينة لافكار ابن حيوج وابن جناح الى الدرجة التي ظن بعضهم معها ان ذلك الكتاب كان ترجمة لمؤلفاتهما . (٢٥) اما الترجمة فقد انصب معظمها على كتب ابن حيوج وابن جناح ايضا ، فترجمت اعمالهما اكثر من مرة في الاقطار الاوروبية المختلفةوكان اول من ترجم المؤلفات النحوية العبرية ، الموضوعة بالعربية ، الى اللغة العبرية هو الكاهن موسى جيقاتيلا . وقام ابراهام بن عزرا بالعمل نفسه في روما حوالي ١١٤٠م . وترجمت الكتب نفسها ثالثا ورابعا في اماكن اخرى من اوروبا ، كما ترجمت بعض كتب ابن باعم في اواخر القرن الثاني عشر .

اما عن التاليف في النحو العبري في العصر الحديث ، سواء ما قام بتاليفه منها نحاة يهود،ام ما وضعه مستشرقون اوروبيون ، فنكتفي بالاستشهاد في هذا المقام بما اوردته دائرة المعارف اليهودية في هذا الصدد، التي تشير الى ان الاضافات والتجديدات التي ادخلت على النحو العبري الاندلسي كانت جزئية وبسيطة ، ولذلك فانها تمثل استمرارا للنهج الاندلسي في النحو والتصريف والنحوى ، ولم يستطع المحدثون حتى الآن ان يرقوا بالنحو العبري الى مرحلة يتخطون بها المرحلة التي وصل اليها على ايدي النحاة الاوائل في الاندلس . (٢٦)

هذا العرض الوجيز لنشاة النحو العبري وتطوره اغفل اسماء وتفاصيل كثيرة ، لم نهملها لانها تتناقض مع الفكرة الاساسية لهذه

المقالة بسل تجنبا للاطالة والتكرار، وعسى جميعها انما تؤيد بقوة الرأي الذي دعانا في البداية الى القول بضرورة التعرض الى نشأة النحو العبري وتطوره عند التأريخ للنحو والنحاة في العربية، والى اعتباره جزءا من التراث النحوي العربي ؛ لانه كُتب بالعربية وانبثق عن نحوها ، وترعرع في كنفه، لا يغيّر من تلك الحقيقة ولا يغيرها، ان يكون نحوا جاءت امثلته فحسبُ من العبرية، بينما جاء كل شيء آخر فيه من العربية.

الحواشي

1. Thomas A. Sebeok , editor. Historiography of Linguistics. Current Trends in Linguistics, volume 13 (The Hague : Mouton, 1975).

2. Haim Blanc. Linguistics among the Arabs, pp 1265 - 1283 in the above book .

3. Nahum M. Waldman, The Hebrew Tradition . In Sebeok, op, cit., pp. 1286 — 1330.

4. R. H. Robins. A Short history of Linguistics (London : Longman , 1967) , P. 30.

5. James Barr. Linguistic Literature, Hebrew. In Encyclopaedia Judaica, volume 16 (New York : Macmillan, 1972) , P. 1354 .

6. Hartwig Hirschfeld . Literary History of Hebrew Grammarians and Lexicographers (Oxford: Oxford University Press, 1926) P. 6.

(٧) أحمد مختار عمر . البحث اللغوي عند العرب (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١) ، ص ٥٠ — ٥٧ .

(٨) من هذه : د. محمد التونجي . اللغة العبرية وآدابها (القاهرة : مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٥)، ص ٢٧ — ٤٠ ود. عوني عبد الرؤوف . قواعد اللغة العبرية (القاهرة : مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧١) ،ص ١٦ وما بعدها . ود. يحيى كمال . دروس اللغة العبرية (بيروت ، ١٩٧٨) ، ص ٤٦ وما بعدها .

9. Hirschfeld, op. cit., P. 7.

10. William Chomsky. Hebrew, the Eternal Language (Philadelphia The Jewish Publication Society of America, 1975) , P. 117.

11. James Barr, op. cit. , p. 1335.

12. Cf. E. Kautzsch. Gesenius Hebrew Grammar (Oxford University press, 1910) , P. 19; William Bacher. Grammar, Hebrew. In The Jewish Encyclopaedia (New York : Funk & Wagnalls, 1904 - 1916) , volume 6,P. 69, and Hirschfeld, op cit., P. 11.

13. S. W. Baron. Hebrew Language and Letters. In Social and Religious History of the Jews, volume 8 (New York : Columbia University Press, 1958) , P. 34.

14. Barr, op. Cit., P. 1354.

15. Hirschfeld, op. cit., p. 35.

(١٦) القاسم ، مثلا ، المصدر السابق نفسه .

(١٧) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

18. Edna A. Coffin. Ibn Janah's Kitab al-Luma': A Critique of Medieval Grammatical Tradition. Unpublished Ph. D. dissertation (Ann Arbor : University of Michigan, 1968) , p. 21.

19. Hirschfeld, op. cit., p. 58.

20. Barr, op. cit., pp. 1357-1358.

21. Hirscfeld, op. cit., pp. 49-50.

(٢٢) هذا ما أورده البير مطلق في كتابه « الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف » (صيدا وبيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٦٧) ، ص ٢٦ نقلا عن

Lèvi-Provencal. Histoire de l,Espagne Musulmane (Paris, 1950) , pp 80-81.

(٢٣) البير مطلق (المصدر السابق) ، ص ٢٥٧ .

24. Barr, op. cit., p. 1358.

(٢٥) المصدر السابق نفسه .

26. Barr, op. cit., p. 1391 .